مجلة الحكمة للدراسات التربوية والنفسية
Eissn:2602-5248 Issn : 2353-0456
المجلد 10 / العـدد: 04(2022)، ص: 91- 103

الإنسان في الفكر التربوي لمالك بن نبي

The Human is Malek Ben Nabi's Educational Thought

فريدة حمالي[1]

[1]المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة (الجزائر)، hamalli.farida@ensb.dz

تاريخ الاستلام: 2022/11/20 تاريخ القبول: 2022/11/29 تاريخ النشر: 2022/12/07

ملخص:

لقد اهتم مالك بن نبي بمسألة الإنسان،فجعله حجر الزاوية في معادلة الحضارة،ومن المجال التربوي مجالا حيويا وحساسا في مشروعه الحضاري، إذ من شأنه أن يهيئ الإنسان للقيام بدوره في عملية التغيير والبناء، وهذا ما يقتضي توجيه الفكر والأعمال عند الفرد وفي المجتمع وفق ما تفرضه التربية الأخلاقية والتربية الجمالية وتعليم العلوم، وجوهر التوجيه في الفعل التربوي هو الفعالية الاجتماعية التي من شأنها صياغة المشكلات صياغة دقيقة وتحديد المبادئ والغايات وتوظيف كافة الوسائل وفق استراتيجية تسمح بالسير في التاريخ نحو الحضارة.

كلمات مفتاحية: مالك بن نبي، الحضارة، الإنسان، التربية، التجديد.

Abstract:

Melek Ben Nabi'sinterest in the humanquestion made it the cornestone of the civilizationalequation, and the educationalfieldbecame an obvious and sensitive area in hiscivilizationalproject, as itwouldmake the humanbeing to playhisrole in the process of change and construction.Thisiswhatrequiresorienting the thinking and actions of the individual in society according to whatisrequired by moral education,aestheticeducation and science.Theaim of orienting the educationalactis the social

effectivenessthatwillformulate the problemswithprecision and makingprecise objectives and goals by using all meansaccording to a global strategywhichallows to follow civilisation throughhistory.

Keywords: Malek Ben Nabi, Civilisation, Human,Education, Renewal.

***المؤلف المرسل:** فريدة حمالي

1. مقدمة:

في ظل التطورات السريعة التي يشهدها العالم في جميع الأصعدة العلمية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والأخلاقية، تزداد مشكلة التربية والتعليم تعقيدا، وتصبح تحديا بالنسبة إلى صناع القرار، وعليه فلا بد للأمم التي تريد مسايرة ومواكبة هذه التغيرات أن تحتفظ بفاعلية وقوة نظامها التعليمي والتربوي، وتضمن قدرة استمراريتها على خوض غمار الإنتاج والتنمية، ويكون هذا وفق رؤية واضحة تستدعي المواكبة والتجديد، وهذه الرؤية لا بد أن تنطلق من نتائج البحث التربوي الذي يكون أساسه التفلسف، لأن نقطة البداية في أي إصلاح تربوي، إنّما تبدأ من صياغة فلسفية تربوية كاملة تنبع من المتغيرات الاجتماعية والعالمية المعاصرة.

فالمسألة الأولى للتربية هي أن تعرف ما هو الإنسان وما هي أهدافه وأن تسير في اتجاه تلك الأهداف وهذا ما قام به المفكر الجزائري مالك بن نبي عندما جعل من الإنسان حجر الزاوية في معادلة الحضارة ومن المجال التربوي مجالا حيويا وحساسا في مشروعه الحضاري، إذ من شأنه أن يهيئ الإنسان للقيام بدوره في عملية التغيير والبناء، لهذا ارتأينا في هذه المداخلة الإجابة عن الإشكال التالي: ما هو مفهوم مالك بن نبي للإنسان؟ وكيف يتم إعداده للقيام بدوره في البناء الحضاري؟ أو بعبارة أخرى كيف يبني مالك بن نبي إنسان الحضارة في ضوء مشروعه التربوي؟

وللإجابة عن هذا الإشكال، تناولنا بالدراسة والتحليل المشروع الحضاري لمالك بن نبي، لنعرض بعد ذلك قضية الإنسان في معادلته الحضارية ثم خصصنا العنصر

الأخير من المداخلة لمعالجة التربية وإنسان الحضارة عند مالك بن نبي، أما الخاتمة فتضمنت أهم النتائج المتوصل إليها من خلال البحث.

والأهداف المرجوة من هذه المداخلة نذكر منها:

- الكشف عن مدى أهمية فكر بن نبي في الدفع بالمجتمع العربي والإسلامي عامة والمجتمع الجزائري خاصة إلى التحليل والكشف عما آل إليه من تدهور في كافة مجالات الحياة خاصة العلمية والثقافية منها.

- إبطال بعض المواقف العنصرية التي ترى أن التحضر ليس من نصيب جميع الشعوب، بل هو مقتصر على البعض منها فقط، وهذا ما قامت به أطروحة مالك بن نبي ففندت هذه المواقف الداعية إلى العنصرية والمكرسة لظاهرة التفاضل والتمييز بين الأجناس، فالحضارة لا وطن لها والعلم ليس حكرا على أحد، والتطور الحضاري من نصيب كل أمة طالما توفروت فيها الشروط والظروف التي تؤهلها لذلك.

2. المشرع الحضاري لمالك بن نبي:

نتيجة للظروف التي آل إليها العالم العربي والإسلامي من جراء الاستعمار وانعكاساته على المجالات الفكرية والسياسية والاجتماعية والثقافية، ظهرت محاولات وإصلاحات تصدرها العديد من المصلحين من بينهم: "جمال الدين الأفغاني"، "محمد عبده"، "عبد الحميد بن باديس" و"محمد إقبال" و"مالك بن نبي" وغيرهم، كان لهم الدور في إرساء أسس الإصلاح والنهضة والتجديد في العصر الحديث.

وخير ممثل للحركة الإصلاحية هو المفكر الجزائري مالك بن نبي (1905/م-1973/م) الذي بدوه اهتم بقضية النهضة والحضارة، لأنه أدرك أن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، وبالتالي لا يمكن لأي شعب فهم أو حل مشكلته ما لم يفكر في الأحداث الإنسانية وما لم يبحث في عوامل بناء وانهيار الحضارة(مالك بن نبي، 1976، ص44)، لهذا أخذ على عاتقه دراسة موضوع الحضارة في شروطها وأسباب تخلفها وعوامل انهيارها، فقدم بذلك "نظرية في الحضارةواستراتيجية في البناء الحضاري وفي تفسير التاريخ تختلف عن تلك التي جاء

بها مفكرون غربيون محدثون ومعاصرون أمثال "أرنولد توينبي" و"أزولدسبنجلر" و"فيكو" وغيرهم"(جيلالي بوبكر، ب.ت، ص12).

عندما فكر مالك بن نبي في واقع العالم العربي والإسلامي، وجده واقعا يتصف بالتخلف والانحطاط والانحلال والاستعمار بمختلف أشكاله، ومع ذلك فإنه كان يؤمن بأن لهذا العالم إمكانيات وطاقات روحية ومادية، ما تدفعه إلى الإسهام في إيجاد حلا لمشكلاته لبلوغ أرقى مستوى التحضر، وكذلك ما يسمح له بالمساهمة الفعّالة والحقيقية في مواكبة التطور الحضاري، وهذا ما يؤكد دعوته للعالم العربي والإسلامي إلى "الأخذ بأساليب وشروط النهضة والتجديد والبناء الحضاري"(جيلالي بوبكر، ب.ت، ص19).

ويرى مالك بن نبي أن التجديد من شروط البناء الحضاري وتطويره، فكل نهضة وكل حضارة وكل صحوة حضارية تستلزم التجديد باعتباره تغييرا في الإنسان والمجتمع، وهو الذي يعمل على صناعة الحضارة وتطويرها واستمرارها، وعليه "فالعلاقة بين التجديد والحضارة هي علاقة العلة بالمعلول...والنتيجة بالسبب(جيلالي بوبكر، ب.ت، ص77). وظاهرة التجديد الحضاري مرتبطة بمدى الفاعلية الإنسانية في بناء الإنسان ذاتيا واجتماعيا وتاريخيا، ويبدأ التجديد من الإنسان ذاته لينتقل بعد ذلك إلى المحيط الخارجي والاجتماعي والطبيعي الذي يعيش فيه، أي أنه لا يتأتى إلا بمجهودات تصدر عن إنسان يعيش التغير في نفسيته وذهنيته ويغير من أخلاقه وسلوكه، كما يغير محيطه الاجتماعي والطبيعي، وهذا ما يعرف بالتجديد الحضاري الذي يعبّر عن فاعلية إنسانية هادفة إلى الانتقال بالإنسان من مرحلة الانحطاط والضعف إلى مرحلة النمو والتحضر. وعليه فغاية كل مجتمع حسب مالك بن نبي هي إما السعي في تقدمه إلى الحضارة وإما إلى الانهيار، وانعدام الحركة معناه افتقاد الإنسانية لتاريخها: فيصبح وجودها بلا هدف،لكن عندما تشرع في تغيير نفسها من أجل تحقيق غايتها، فإنها تكتسب صفة المجتمع فتدخل في التاريخ، والدليل على ذلك ما قاله في كتابه ميلاد مجتمع: "إن الطبيعة توجد النوع، ولكن التاريخ يصنع المجتمع، وهدف الطبيعة هو مجرد المحافظة على البقاء، بينما غاية التاريخ أن يسير بركب التقدم نحو شكل من

أشكال الحياة الراقية، هو ما نطلق عليه اسم الحضارة"(مالك بن نبي، 1986، ص19).

إذن الحضارة عند مالك بن نبي ظاهرة إنسانية، وهي شرط إيجاد الإرادة والقدرة على تجاوز التخلف "فهي مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذلك من أطوار نموه"(نقلا عن جيلالي بوبرك، ب.ت، ص37)، وبالتالي فهي ليست مجرد تكديس لمنتجات فكرية ومادية الذي يغرق المجتمع في الشيئية والتبعية بعيدا عن التحضر والاستقلال، لهذا يقول مالك بن نبي: "لا يقاس غنى المجتمع بكمية ما يملك من أشياء، بل بمقدار ما فيه من أفكار"(مالك بن نبي، 1986، ص37). فالحضارة هي التي تنتج منتجاتها لا العكس، إنها القدرة على البناء والخلق والإبداع في إطار شروط وعوامل ووفق منهج يحدد نقطة الانطلاق ونقطة الوصول، وفي إطار القيم التي يؤمن بها المجتمع والوسائل والأهداف التي يتم تحديدها، وكذلك في ضوء رؤية شاملة وواضحة تتميز بالدقة والعمق بحيث تتخذ من العلم والمنطق أسس لها(جيلالي بوبكر، ب.ت، ص38). فبهذا تكون الحضارة عند مالك بن نبي هي انسجام وتكامل الجهود الإنسانية مع جملة الشروط النفسية والاجتماعية والروحية والمادية لتحقيق التطور في مختلف المجالات.

وبناء الحضارة عند مالك بن نبي، يتم بالعناصر الثلاثة: الإنسان +التراب +الوقت(مالك بن نبي، 1976، ص45)، والعامل الذي يمزج بين العناصر الثلاثة هو الفكرة الدينية التي رافقت دائما تركيب الحضارة خلال التاريخ، وعليه تبدأ الحضارة عندما تدخل إلى التاريخ الفكرة الدينية أو مبدأ أخلاقي معين، وفي هذه الحالة يكون الإنسان في مرحلة سابقة للحضارة، حيث تخضع فيها الغرائز لسلطة الروح بتوجيه من الفكرة الدينية: إذ تهتم هذه الأخيرة بإخضاع غرائزه لعملية تكييف تمثل ما يعرف في عالم النفس (الفرويدي) بـ (الكبت)(مالك بن نبي، 1986، ص109)، والهدف من وراء هذه العملية ليس القضاء على الغرائز، بل العمل على تنظيمها في علاقة وظيفية وذلك وفق مقتضيات الفكرة الدينية، وبالتالي فالجانب الحيواني المتمثل في الغرائز لم يلغ، بل أخضع لقواعد ونظام معين، إذ في إطاره

يتحرر الفرد جزئيا من قانون الطبيعة الذي فطر عليه، فيخضع وجوده كله للمقتضيات الروحية التي أوجدتها الفكرة الدينية في نفسه، وفي هذه الحالة الجديدة يمارس حياته طبقا لقانون الروح، وهذا ما كان سائدا في المجتمع الإسلامي، إذ يقول مالك بن نبي: "...فكل لغة هذا العصر كانت روحية المنطق، إذ هي بنت الروح أولا وقبل كل شيء"(مالك بن نبي، 1986، ص110).

لهذا يؤكد على ضرورة إعادة تنظيم طاقة المسلم الروحية وتوجيهها، وذلك بتجديد إيمانه باستمرار على العبادة ومراجعة العقيدة والتمسك بتعاليم الكتاب والسنة والاقتداء بالصحابة والامتثال لأوامر ونواهي الشرع، والدليل على ذلك ما ورد في كتابه ميلاد المجتمع، عند قوله: "...أولا...يجب تنظيم تعليم (القرآن) تنظيما (يوحي) معه من جديد إلى الضمير المسلم (الحقيقة) القرآنية، كما لو كانت جديدة، نازلة من فورها من السماء على هذا الضمير"(مالك بن نبي، 1986، ص110).

إذن أول ما يجب القيام به هو تعليم القرآن.

ثانيا: ينبغي تحديد رسالة المسلم الجديدة في العالم، بحيث إنه يستطيع الاحتفاظ باستقلاله الأخلاقي، حتى ولو كان يعيش في مجتمع تكون فيه مبادئه مخالفة لمبادئه وقيمه الأخلاقية، كما أنه سيكون في إمكانه القيام بمسؤولياته على أكمل وجه، مهما كانت ظروفه الاجتماعية أو المادية(مالك بن نبي، 1986، ص110). وبذه الطريقة أيضا يستطيع المسلم أن ينشأ وسطه الخاص شيئا فشيئا، وذلك من خلال تأثيره على الظروف الخارجية بحياة نموذجية ينتقل أثرها إلى ما عداها، كما كانت حياة مجموعة من الرجال الذين كانوا يعيشون حول النبي صلى الله عليه وسلم بمكة أيام الإسلام الأولى(مالك بن نبي، 1986، ص114).

إذن كل فعل يقوم به المسلم أو صحوة يعرفها بعد انغماسه في الشهوات والرغبات أو عودة إلى الطريق الصواب، هو عبارة عن تجديد حضاري يستهدف الوصول إلى التحضر.

إن طور النهضة هو روحي تنتظم وتنضبط فيه الغرائز تحت سلطة الروح بتوجيه من الفكرة الدينية، ويتطور المجتمع في المرحلة الثانية بفعل اكتمال روابطه الاجتماعية، وتنتهي الحضارة عندما تفقد الروح سيطرتها عليها، فتسترجع سيادتها بفقدان الروح ومن ثم تظهر بوادر الانهيار والأفول التي تعبّر عن مرحلة ما بعد

الحضارة(مالك بن نبي، 1976، ص70) ، عندئذ تتوقف وظيفة الفكرة الدينية في المجتمع وتغيب فيها شمس الحضارة. وهكذا فقد حرص مالك بن نبي على توضيح أثر ودور الفكرة الدينية في تركيب الحضارة وقدرتها على التحكم بسلوك الفرد، فتنظم غرائزه وفق نظام يضمن انسجامها مع معطيات الفكرة الدينية، فيصير الجانب الحيواني فيه خاضعا لقوانين يحددها الدين، فيرتقي الفرد من المستوى الطبيعي إلى المستوى الروحي.

3. الإنسان في معادلة الحضارة عند مالك بن نبي:

لقد حصر مالك بن نبي مشكلة الحضارة في مشكلة العناصر التركيبية لها وهي: مشكلة الإنسان ومشكلة الوقت ومشكلة التراب، والمشكلة الجوهرية هي مشكلة الإنسان والتفكير فيها هو تفكير في مشكلة حضارته.

ومشكلة الإنسان يحددها السؤال التالي: كيف يمكن إعداد إنسان قادر على بناء حضارة والمحافظة على استمراريتها؟ هل نحن في حاجة إلى مؤسسات أم إلى رجال؟ وقد أجاب مالك بن نبي عن ذلك بقوله: "يجب أولا أن نصنع رجالا يمشون في التاريخ مستخدمين التراب والوقت في بناء أهدافهم الكبرى"(مالك بن نبي، 1976، ص75).

ولتحقيق هذا الهدف يجب الإلمام بمشكلة الحضارة والتركيز على عنصرها الأساسي وهو الإنسان وينبغي معرفة كيفية تأثيره في بناء الحضارة: إذ يؤثر الفرد في مجتمعه بثلاثة مؤثرات: أولا الفكرة، ثانيا بعمله وثالثا بماله وبالتالي ينبغي توجيهه في الجوانب الثلاثة: الثقافة والعمل ورأس المال(مالك بن نبي، 1976، ص77).

لكن السؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا هو كالتالي: ما مفهوم مالك بن نبي للإنسان؟

إن تصور مالك بن نبي للإنسان مختلف عن التصورات المثالية والاتجاهات الإنسانية التي تهتم بمفهوم الإنسان لتثبت قيمته عبر التاريخ أو لتؤكد على أنه حيوان ناطق واجتماعي، بل إنه تجاوز هذه التفسيرات، فذكر أخص خصائصه، فرأى أن "الإنسان ذو دين"، ومعرفتنا بالإنسان متوقفة على مدى معرفتنا بذواتنا.(مالك بن نبي، 2002، ص154) ويرى مالك بن نبي أن رسالة الإنسان في حياته الاجتماعية أن يكون عاملا نفسيا زمنيا، فهو لا يؤثر فيها تأثيرا زمنيا فحسب، بمعنى تبعا لحاجاته المادية فقط، بل إنه يؤثر فيها طبقا لوجوده النفسي أي طبقا

لحاجاته الروحية، فهذه هي حقيقة الإنسان كاملة، وهي ما ينبغي إدراكه لتناوله كلا غير متجزئ، إذ أنه لا يمكن تحديد شروط تغييره، لو غاب عن أذهاننا أحد هذين الجانبين: الروحي أو الزمني، فهو من الجانب الأول إنسان متدين(مالك بن نبي، 2002، ص155)، وبالتالي يتدخل العنصر الديني مباشرة في الطريقة التي يتبعها لاستيطان ذاته، باعتباره أساسا لضمير يبحث عن ذاته، وقد ربط الإنسان الضمير الديني بالوعي الاجتماعي بحيث لا يكن لأحدهما أن ينفصل عن الآخر، إذن الإصلاح الديني ضروري باعتباره نقطة في كل تغيير اجتماعي(مالك بن نبي، 2002، ص155).

وقد استخلص مفهومه للإنسان من خلال دراسته للمشاكل التي يعيشها الإنسان المسلم في إطار الواقع الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع الجزائري، معتبرا إياه عيّنة جزئية من المجتمعات العربية والإسلامية ومبتدئا بملاحظات منهجية غاية في الدقة حول شخصية الإنسان الجزائري، ومحللا علاقاته الاجتماعية بالاستناد إلى الوصف العلمي لحياة الإنسان المسلم فوسمه مالك بن نبي "بإنسان ما بعد الموحدين"، و"هو إنسان هرم، في طريقه إلى الفناء"(مالك بن نبي، 2002، ص169)، أي تسيطر عليه الغرائز ويعيش المرحلة الأخيرة من أطوار الحضارة.

إن أزمة العالم الإسلامي تكمن في أزمة الإنسان المسلم الذي خرج من الحضارة وهو يعاني من مشكلتين: إحداهما نفسية تتمثل في النظرة السلبية إلى ذاته والأخرى اجتماعية تكمن في علاقته ببقية أفراد مجتمعه، وفي إطار هاتين المشكلتين: يفقد المسلم الفعالية الحضارية، هذا فإنه من الضروري تحريره من عقدة النقص والانبهار بالحضارة الغربية وكذلك الموروث الثقافي لمجتمع ما بعد الموحدين، كالتواكل والكسل وعدم العمل ...إلخ. وبالتالي فالحل لا يكون في تغيير طريقة لباسه أو نمط حياته، بل في تحديد الرؤية الحضارية التي تعيد مجتمعه إلى التاريخ، وذلك في إطار برنامج تربوي يهدف إلى تغيير الإنسان من الداخل وفق شروط معينة، حتى يتمكن من أداء وظيفته الاجتماعية فيحقق البناء في المجتمع المتحضر.

إذن يتضح من خلال ما سبق، أن الإنسان هو العنصر الأساسي في معادلة الحضارة، والدارس لكتب مالك بن نبي يمكنه أن يستخلص بنفسه المكانة المركزية

التي يتصدرها الإنسان في مشروعه الحضاري، إذ لا يتأسس صرح الحضارة من دون بناء الإنسان تربويا وثقافيا، وبث الفاعلية الحضارية في كيانه يمثل اللبنة الأولى لمشروعه الحضاري، وهذا ما يتطلب في نظره دراسة أهم القوانين التي تتحكم في حركة الإنسان وفعاليته في التاريخ. لهذا اهتم مالك بن نبي بمسألة التربية، لأنها تثير إشكاليات فلسفية عامة كطبيعة الحياة الصالحة للمجتمع التي ينبغي تحقيقها وطبيعة الإنسان الذي نربيه والمجتمع الذي تحدث في إطاره العملية التربوية، وكذلك القيم المراد تجسيدها في السلوك الإنساني وفي هذا يقول أوليفيه ربول (Olivier Reboul 1925-1992): "...يدرس علم التربية طرق التربية أما الفلسفة فتفكر في غايتها، لم نربي، وما معيار تربية ناجحة؟ وعندما يتساءل مرب عن غايات مشروعة فإنما يتساءل كفيلسوف"(أوليفيه ربول، 1986، ص12). إذن هدف فلسفة التربية هو الارتقاء بالإنسان وتنمية قدراته وتحقيق تقدمه الاجتماعي ومساعدته على حل مشكلاته، فهي تعبير عن طموحاته وتطلعاته إلى حياة أفضل ومجتمع أرقى.

4. التربية وإنسان الحضارة عند مالك بن نبي:

يذهب مالك بن نبي إلى أن حل مشكلة الإنسان يتم عن طريق التربية التي بفضلها تصبح لديه القابليةلصناعة الحضارة وذلك من خلال تغيير السلوك الإنساني وتنميته لتمكن الفرد من المساهمة الفعّالة في تحقيق حاجات الحاضر ومواجهة تحديات المستقبل وتسخير موارد البيئة وخبرات الماضي للنهوض بالمجتمع.

ولما كان الدين هو بمثابة المركب الكيميائي الذي يمزج بين العناصر التركيبية للحضارة، فهذا لا يعني تزويد الإنسان المسلم بتربية دينية أو حشو المناهج التعليمية بالخطاب الديني، بل المقصود بذلك استنباط الفكر التربوي من الرؤية الإسلامية الحضارية وذلك بتحويل القيم الإسلامية إلى قيم أخلاقية تربوية تعيد للإنسان المسلم الثقة بذاته من خلال تنمية جانبه الروحي، فتعمل تلك القيم على جعل العلاقة الاجتماعية بين الأفراد عبارة عن علاقات روحية أكثر منها علاقات تعاقدية، ومن ثم فالهدف من التربية هو الزيادة من فعالية الإنسان المسلم ليتمكن من إصلاح علاقاته الاجتماعية وذلك بعد إصلاح وتغيير ذاته،

فيتحول الإنسان المسلم من شخص إلى فرد والمجتمع من مجتمع طبيعي إلى مجتمع تاريخي.

إذن التربية من منظور مالك بن نبي هي أداة معرفية وتطبيقية لتجسيد المشروع النهضوي للأمة الإسلامية، فليس الهدف منها كما يقول: "...أن نعلم الناس أن يقولوا أو يكتبوا أشياء جميلة، ولكن الهدف أن نعلم كل فرد فن الحياة مع زملائه، أعني: "أن نعلمه كيف يتحضر"(مالك بن نبي، 1986، ص99). فالتربية عنده ليست مجموعة من القواعد والمفاهيم النظرية التي لا سلطان لها على الواقع، كما أنها ليست من إنتاج المتعلمين الذين يعرفون جميع كلمات المعاجم دون إلمامهم بما تترجمه هذه الكلمات من وقائع، وكذلك ليست من إنتاج أولئك الذين يعرفون جميع المبادئ والتعاليم الإسلامية دون تمكنهم من تطبيق مبدأ واحد من هذه المبادئ لتغيير أنفسهم أو مجتمعهم، لهذا يقول مالك بن نبي: "...فكل حقيقة لا تؤثر على الثالوث الاجتماعي: الأشخاص والأفكار والأشياء هي حقيقة ميتة"(مالك بن نبي، 1986، ص100).

ويمثل مبدأ التغيير عند مالك بن نبي قاعدة أكد عليها القرآن الكريم في قول تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (سورة الرعد، الآية 11)، ويحدث التغيير في جملة من ميادين الحياة الإنسانية وذلك على المستوى الفردي والاجتماعي، وهذا ما يسمى بالتحديد الحضاري الذي تنبثق منه جملة من العلاقات الاجتماعية التي تتجسد في الأفعال والأشياء تعرف بمظاهر الثقافة.

الثقافة في منظور مالك بن نبي هي "مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية، التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه، فهي على هذا التعريف المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته"(مالك بن نبي، 1984، ص74) فهي إذن المحيط الذي يعكس حضارة معينة ويتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر. يبدو من خلال تعريفه للثقافة أنه يضم بين دفتيه مقومات الإنسان والمجتمع، مع التأكيد على ضرورة الانسجام بين هذه المقومات جميعا في كيان واحد، والذي تحدثه عملية التركيب الصادرة عن الفكرة الدينية، وذلك وفقا لمنهج تربوي يتخذ صورة فلسفية أخلاقية، فبذلك تكون الأخلاق أولى المقومات في الخطة التربوية(مالك بن نبي،

1984، ص63). والثقافة بمعناها التربوي ليست في نظر مالك بن نبي علما يخص طبقة معينة من الشعب دون الأخرى، بل هي دستورتتطلبه الحياة العامة بكل ما فيها من ضروب التفكير والتنوع الاجتماعي، وإذا كانت الثقافة هي بمثابة الجسر الذي يعبر منه الناس لبلوغ مرحلة النمو والتحضر، فإنها أيضا الحاجز الذي يحفظهم من السقوط من أعلى الجسر إلى أسفله، فالثقافة هي نظرية في السلوك أكثر منها نظرية في المعرفة(مالك بن نبي، 1984، 73).

إن مشكلة الثقافة من الوجهة التربوية هي في جوهرها مشكلة توجيه الأفكار وذلك بإرادة الجهاز المكون من ملايين السواعد العاملة والعقول المفكرة في أحسن الظروف الزمنية والإنتاجية تفاديا للإسراف في الجهد والوقت. كما تقتضي مشكلة توجيه الأفكار التساؤل عن كيفية إدراك الثقافة في صورة برنامج تربوي يصلح لتغيير الإنسان الذي لم يتحضر بعد، أو لإبقاء الإنسان المتحضر في مستوى وظيفته الاجتماعية وأهدافه الإنسانية(مالك بن نبي، 1986، ص100).أما فيما يتعلق بواقع البلاد العربية والإسلامية، فينبغي التفكير في الإنسان الذي لم يتحضر بعد أو الذي خرج من دورة حضارته خلال أزمة تاريخية معينة، فتحدد له الشروط الفاعلية القائمة على منهج الأخلاق أو الجمال مثلا، ما يمكنه من تحقيق ما ينبغي من ثقافة.

وينحصر البرنامج التربوي للثقافة الذي جاء به مالك بن نبي فيما يلي:

1.4. التوجيه الأخلاقي: فالمجال الأخلاقي هو الذي ينظم حياة أفراد كل مجتمع ويحدد العلاقات الاجتماعية وإذا كان المبدأ الأخلاقي في أصله دينيا روحيا، فهو الذي دفع الإنسان إلى التحرك نحو الحضارة.

2.4. التوجيه الجمالي: يعتبر الفن مجالا ثقافيا، قد يسعى إلى الفضيلة أو الرذيلة، ويمكن توسيع مجال الفن لكي لا يقتصر على جملة من الممارسات كالموسيقى والشعر والرقص وغيره، ليشمل كيفية الجلوس وكيفية تناول الطعام والمشي في الطريق(جيلالي بوبكر، ب.ت، ص105). ويرتبط الفن بالجمال، والتربية الفنية والجمالية تخلق الذوق الجمالي في اختيار الأشياء والأفكار والأفعال، فالجمال يدعو إلى الفضيلة وينبذ الرذيلة ويدعو إلى تجنبها، وذلك انطلاقا من ذات الفرد وسلوكه لينعكس في المجتمع وقيمه وعاداته وقوانينه، أما المجتمع الذي ينطوي على صور

قبيحة، فلا بد أن يظهر أثر هذه الصور في أفكاره وأفعاله(مالك بن نبي، 1984، ص81).

3.4. المنطق العملي: ويقصد به مالك بن نبي كيفية ارتباط العمل بوسائله وأهدافه، "ونحن أحوج...إلى هذا المنطق، لأن العقل المجرد متوفر في بلادنا، غير أن العقل التطبيقي الذي يتكون في جوهر من الإرادة والانتباه شيء يكاد يكون معدوما"(مالك بن نبي، 1984، ص86) ، وهكذا يفتقد العالم العربي والإسلامي الضابط الذي يرتبط بين الأشياء ووسائلها وبين الأشياء وأهدافها، كما أن ثقافته تجهل مثلها العليا وفكرته لا تعرف التحقيق، وبالتالي ما ينقص المسلم ليس منطق الفكرة ولكن منطق العمل والحركة، فهو لا يفكر ليعمل بل ليقول كلاما مجردا، بل إنه أكثر من ذلك يعارض كل أولئك الذين يفكرون تفكيرا فعّالا من شأنه التأثير في الواقع.

4.4. التوجيه الفني أو الصناعة: لا يفهم مالك بن نبي الصناعة بمعناها الضيق، بل هي كل الفنون والمهن والقدرات وتطبيقات العلوم. والصناعة هي عبارة عن وسيلة يعتمد عليها الفرد لكسب عيشه، أما بالنسبة إلى المجتمع فهي وسيلة للمحافظة على كيانه واستمرار نموه، ويذهب مالك بن نبي إلى ضرورة التركيز في كل فن على هذين الاعتبارين.

إذن تجديد الفكر يعني تجديد المفاهيم والتصورات عن الوجود الذاتي والاجتماعي وتجديد مناهج التفكير والمبادئ والأهداف والتفكير في الوسائل والمناهج للوصول إلى تلك الغايات، ويحدث هذا في مختلف الجوانب الفكرية: المجال العلمي وكل ما يتعلق بالعلوم ومناهج البحث العلمي. كما يتحقق التجديد في المجال السياسي عند إصلاح الدولة بمنهج أخلاقي قويم، بحيث يضعها في إطارها الأخلاقي الديني الذي يكفل لها البقاء والازدهار، وللأفراد كافة مطالبهم وحاجاتهم وهذا ما يشترط التوجيه التربوي أي التربية الأخلاقية والتربية الجمالية وتعليم العلوم.

5. خاتمة:

وفي الأخير يمكن القول، أن الحضارة فعل بنائي، تقتضي أسسا فكرية وروحية في عالمي الأشخاص والأشياء، وذلك يشترط فكرا تربويا يهدف إلى تغيير الإنسان من الداخل وفق شروط معينة ليتمكن من أداء دوره في المجتمع وتحقيق البناء

الحضاري، وهذا ما يقتضي توجيه الفكر والأعمال عند الفرد وفي المجتمع وفق ما تفرضه التربية الأخلاقية والتربية الجمالية وتعلم العلوم. وجوهر التوجيه في الفعل التربوي هو الفعالية الاجتماعية التي من شأنها صياغة المشكلات صياغة دقيقة وتحديد المبادئ والغايات وتوظيف كافة الوسائل وفق استراتيجية شاملة تسمح بالسير في التاريخ نحو الحضارة.

6. قائمة المراجع:

القرآن الكريم

بن نبي، مالك. (1976).*شروط النهضة*، تر: الصبور شاهين. إشراف ندوة مالك بن نبي، سوريا: دار الفكر للطباعة والنشر.

بن ، مالك.(1984).*مشكلات الحضارة،مشكلة الثقافة*. ط4، تر: الصبور شاهين. دمشق: دار الفكر. نبي

بن نبي، مالك.(2002).*مشكلات الحضارة، وجهة العالم الإسلامي*.تر: عبد الصبور شاهين. إشراف ندوة مالك بن نبي. دمشق: دار الفكر.

بن نبي، مالك.(1986). *ميلاد مجتمع. شبكة العلاقات الاجتماعية*. ط3.تر: عبد الصبور شاهين. بإشراف ندوة مالك بن نبي. الجزائر: دار الفكر، دمشق: دار الفك.

جيلالي.بوبكر. (ب.ت).*البناء الحضاري عند مالك بن نبي*. الجزائر: دار المعرفة.

ربول،أوليفيه.(1986).*فلسفة التربية*. ط3.تر: جهاد نعمان. بيروت: منشورات عويدات.